**أ-د/ إبراهيم أبراش**

**ملابسات ظهور الكيانية الوطنية الفلسطينية الأولى قبل 1948**

بالرغم من أن اسم فلسطين موجود منذ ما قبل التاريخ – ورد أسمها في التوراة وفي نصوص فرعونية قديمة -إلا أن فلسطين ككيان سياسي وبحدودها الجغرافية المعروفة اليوم هي نتاج لاتفاقيات وتداعيات الحرب العالمية الأولى،ويمكن القول إن الكيانية السياسية الفلسطينية الحديثة بدأت بالتبلور في الربع الأول من القرن العشرين ،ليس رغبة من الفلسطينيين بهذه الكيانية بل فُرضت فرضا عليهم نتيجة خمسة أحداث : 1) ظهور المطامع الصهيونية بفلسطين وما تبع ذلك من هجرات يهودية إلى فلسطين دون غيرها من البلاد العربية . 2)اتفاقية سايكس- بيكو 1916 .3) وعد بلفور 1917. 4) معاهدة سان ريمو 1920 .5) ظهور توجهات قُطرية عربية – سوريا ولبنان والأردن والعراق – فصلت نفسها عن المتحد الكلي سواء كان سوريا الكبرى أو حلم الدولة العربية.

شكل الخطر اليهودي على فلسطين بداية تلمس الفلسطينيين لكينونتهم السياسية ،حيث استهدفت الهجرات اليهودية الفلسطينيين دون غيرهم وخصوصا أن هذه الهجرات بدأت بعد المؤتمر الصهيوني الأول في بال بسويسرا 1897 الذي حدد هدفا واضحا للصهيونية العالمية وهو إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين ،وقد عبر الفلسطينيون لأول مرة عن تخوفاتهم على كينونتهم كفلسطينيين برسائل وجهوها للمؤتمر العربي الذي عقد في باريس حزيران 1913 ، وتصدرت جريدة الكرمل للموضع متسائلة " يا طلاب الإصلاح في بيروت ومصر, كيف تطلبون للبيت سقفا وتغفلون عن وضع أساسه , تطلبون الإصلاح لبلاد يسعى لتملكها الصهيونيون وأن تشاهدون هذا ولا تعارضون كأنكم لا صلة بينكم وبين إخوانكم في العروبة والعثمانية والوطنية في فلسطين , وكأنكم لا تعلمون أن ضياع فلسطين يقضي على آمالكم وحياتكم الاقتصادية".

بالرغم من استياء الفلسطينيين من تجاهل الحركة القومية الوليدة للمعاناة الفلسطينية وتسبيق الحركة للهموم العربية إلا أن الفلسطينيين بقوا مخلصين لانتمائهم القومي حيث ربطوا ما بين الأطماع الصهيونية في أرض فلسطين وبين الإستراتيجية الصهيونية الاستعمارية في المنطقة العربية الهادفة إلى تجزئة المنطقة تمهيداً للسيطرة عليها.عبر الفلسطينيون عن انتمائهم القومي من خلال مشاركتهم بثورة الشريف حسين ضد الإمبراطورية العثمانية, وشكلوا دعامة أساسية من دعائمها, وتبوأ البعض منهم مراكز قيادية فيها, ونظراً لتداخل العامل القومي بالخصوصية الفلسطينية فقد اعتبر الفلسطينيون انتصار الحركة القومية العربية لا يعني تحرر الأقطار العربية من الحكم التركي وإقامة حكومة عربية مستقلة فحسب بل انتصارا للحركة القومية العربية القادرة على مواجهة الخطر الصهيوني وإنقاذ شعب فلسطين منه.

في الوقت الذي كانت فيه الحركة العربية الناشئة منشغلة بمصير البلاد العربية بعد الحرب, مراهنة على تنفيذ الانجليز لتعهدهم للشريف حسين , تم الكشف عن وثيقتين خطيرتين لعبتا دورا في رسم الخريطة الجيوسياسية للمنطقة وما زالت تداعياتهما متواصلة حتى اليوم. الأولى هي اتفاقية سايكس – بيكو 1916 والثانية وعد بلفور 1917 , حيث وعد من لا يملك بمنح فلسطين لمن لا يستحق –الصهاينة**.**

 غموض موقف الحركة القومية الناشئة من فلسطين وبداية تفككها لتيارات قطرية دفع الفلسطينيين للبحث عن ذاتهم وبلورة حالة سياسية وطنية يمكن من خلالها مواجه الخطر المزدوج الذي يواجههم – الهجرات الصهيونية والانتداب البريطاني- وقد وصف ساطع الحصري الحالة العربية آنذاك في كتاب ( يوم ميسلون ): " فهذا فلسطيني يعتبر الصهيونية أول ما يجب أن يهتم به من مشاكل و ذلك سوري يرى في أطماع فرنسا أكبر الأخطار التي تهدد القضية العربية , وذلك عراقي يقول بوجوب الثورة ضد الإنجليز قبل كل شيء" .

وهكذا ابتداء من عام 1918 بدا تظهر إرهاصات وطنية فلسطينية تم التعبير عنها من خلال تشكيل جمعيات إسلامية – مسيحية في كل مدن وقرى فلسطين أخذت على عاتقها قيادة العمل السياسي في البلاد , وتوجيه الجماهير إلى أنجح الطرق والوسائل الكفيلة بمواجهة المشاكل التي تواجهها البلاد. كان انعقاد المؤتمر الفلسطيني الأول لهذه الجمعيات بين السابع والعشرين من كانون الثاني / يناير والعاشر من شباط / فبراير عام 1919 فرصة لظهور التباينات في المواقف ما بين توجهات وطنية فلسطينية وتوجهات قومية عربية وتوجهات قومية سورية , فيذكر خليل السكاكيني أحد الأقطاب الوطنية آنذاك، أنه مع وجود تيار إقليمي يدعو إلى أن تكون فلسطين للفلسطينيين ’ إلا أن التيار الغالب كان تيار الوحدة العربية ... , وأن فلسطين ليست للفلسطينيين بل هي للجامعة العربية ".

لأن المؤتمر تزامن مع وجود حكومة عربية في سوريا بقيادة الأمير فيصل فقد عبر الفلسطينيين بالإضافة إلى انتمائهم القومي العربي عن انتمائهم لسوريا الطبيعية،حيث نصت المادة الأولى من قرارات المؤتمر على : " إننا نعتبر فلسطين جزءاً من سوريا العربية , إذ لم يحدث أن انفصلت عنها في أي وقت من الأوقات ونحن مرتبطون بها بروابط قومية ودينية ولغوية وطبيعية واقتصادية وجغرافية.أما المادة الثالثة فنصت على: "بناء على ما تقدم , إننا نعرب عن رغبتنا بأن لا تنفصل سوريا الجنوبية ( فلسطين ) عن حكومة سوريا المستقلة , وأن تكون متحررة من جميع أنواع النفوذ والحماية الأجنبية". وفي نهاية المؤتمر قرر المؤتمرون إرسال وفد إلى بلاد الشام للاجتماع مع قادة البلاد القوميين وللتعبير عن عواطف أهل (سوريا الجنوبية ) في بقائهم وإياهم كتلة عربية مستقلة, إلا أن الإنكليز منعوا الوفد من السفر إلى دمشق.

 كان أمل الانضمام وتأكيد الانتماء لسورية الطبيعية قد راود أحلام الفلسطينيين, باعتباره المخرج الوحيد أمامهم من المأزق الذي كانوا يواجهونه, ولم يتركوا مناسبة إلا وعبروا عن طموحاتهم هذه. ففي اجتماع لقادة الحركة الوطنية الفلسطينية يوم الثاني عشر من نيسان /أبريل 1919 حددوا المطالب الواجب تقديمها للجنة " كنج كرين " , والتي تركزت على اعتبار "سوريا" التي تمتد من جبال طوروس شمالاً إلى ترعة السويس جنوباً مستقلة استقلالاً تاماً ضمن الوحدة العربية و أن فلسطين جزء لا يتجزأ عنها.

منذ منتصف عام 1920 شهدت فلسطين والقضية العربية عموماً أحداثاً مهمة شكلت بالنسبة لتطور الكيانية الوطنية الفلسطينية منعطفاً ذا دلالة وكان أهمها:1) إعلان بريطانيا وفرنسا كدولتين منتدبتين على الأقاليم التي تحتلانها حيث أعلن مجلس السلام الأعلى في نيسان / ابريل عام 1920 هذا القرار دون الرجوع إلى رغبات وأماني الشعوب. 2) سقوط الحكم الفيصلي في دمشق بعد معركة ميسلون في 24 يوليو عام 1920.

بسقوط الحكومة العربية في دمشق فقد الفلسطينيون آخر أوراق الرهان على الحركة القومية العربية وعلى الانتماء لسوريا الكبرى , فبدأت تتعزز التوجهات الوطنية التي تقول بالاعتماد على الذات بعيداً عن الهموم العربية.وشكل المؤتمر الفلسطيني الثالث في ديسمبر عام 1920 منعطفا لا يقبل اللبس نحو الكيانية أو القطرية السياسية حيث دعا المؤتمر إلى تشكيل حكومة وطنية وكان هذا المطلب الأول من نوعه في تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية. وفي الثامن عشر من ديسمبر رفع رئيس المؤتمر موسى كاظم الحسيني تقريراً إلى المندوب السامي البريطاني في فلسطين – هربرت صموئيل – طلب فيه "... تشكيل حكومة وطنية مسئولة أمام مجلس نيابي ينتخب أعضاءه من الشعب المتكلم باللغة العربية القاطن في فلسطين حتى أول الحرب ".

ابتداء من عام 1929 شهدت فلسطين أحداثاً عنيفة أخطرها هبة البراق, تميزت بتحرك الجماهير الفلسطينية وأخذها زمام المبادرة للتعبير عن السخط والغضب على التعديات الصهيونية على مقدسات المسلمين , ورفضها لسياسة المهادنة التي اتبعتها قيادة الحركة الوطنية تجاه السلطات الانتدابية في فلسطين. وقد أثار الانحياز البريطاني المكشوف لجانب الحركة الصهيونية موجة من العنف والاضطرابات عمت كل البلاد , اقترنت هذه الحالة بموجة من المشاعر الوحدوية التي عمت كل فلسطين. ويبدو أن قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية الممثلة بـ " اللجنة التنفيذية " شعرت بتيار الوحدة العربية الجارف , وبوصول سياستها إلى الطريق المسدود فلجأت إلى محاولة ركوب هذه الموجة وإشراك العرب بالهموم الفلسطينية وتحميلهم جزءاً من مسؤولية ما يحدث على أرض فلسطين، فوجهت في 21شباط/ فبراير عام 1931 بياناً إلى الأمة العربية , دعت فيه العرب إلى الاقتصاص لإخوانكم الفلسطينيين و بمعاملة اليهود في البلاد العربية بمثل ما يعامل اليهود العرب في فلسطين , وأن يعملوا بدون انقطاع للمحافظة على عروبة البلاد المقدسة واستقلالها وفي نفس الوقت دعت لعقد مؤتمر إسلامي في القدس في محاولة منها لاستثارة المشاعر الإسلامية في العالم ضد السياسة الصهيونية البريطانية في فلسطين.

 استغل القوميون انعقاد المؤتمر الإسلامي الذي حضرته العشرات من الشخصيات القومية العربية , فدعوا إلى عقد مؤتمر قومي عربي على هامش المؤتمر الإسلامي. وبالفعل عقد المؤتمر في بيت عوني عبد الهادي وحضره خمسون شخصية عربية , حيث أصدر المؤتمرون بياناً يوم الثالث عشر من كانون الأول / ديسمبر عبروا فيه عن أهداف المؤتمرين وتطلعاتهم القومية , وأشادوا بالجهود التي بذلت من أجل تحقيق كيان عربي مستقل يشمل الأقطار العربية المختلفة ويوصل الأمة العربية إلى الاستقلال الذي تتمتع به أمم العالم الحرة وهاجموا السياسة الاستعمارية الهادفة إلى تجزئة الأمة العربية بهدف إشغال أهل كل قطر من الأقطار العربية عن إخوانهم في الأقطار الأخرى بقضايا إقليمية مصطنعة وأوضاع محلية متقلبة ".إلا أن محاولات استعادة البعدين القومي والإسلامي لم تغير في الواقع الفلسطيني والعربي الذي بات ينحو نحو تكريس كيانات قطرية كل منها منشغل بقضاياه الداخلية.حتى ثورة 1936 الفلسطينية لم تغير شيئا على مستوى الواقع القطري بالرغم من مشاركة متطوعين عرب في أحداث الثورة ، فمن العراق جاء فوزي القاوقجي على رأس قوة قوامها 500 مناضل وتسلم قيادة الثورة في البلاد , ومن سوريا وصلت قوتان أحداهما بقيادة سعيد العاص , والأخرى بقيادة محمد الأشمر , وكان لهذه القوات تأثير في رفع معنويات شعب فلسطين وإشعاره بأنه ليس وحده في ميدان المعركة.

استمرت النضال الوطني الفلسطيني متقطعاً ومرتبكا حتى إعلان بريطانيا نيتها وضع حد للانتداب على فلسطين وكان قرار التقسيم رقم 181 عام 1947 الذي رفضه العرب والفلسطينيون ثم حرب 1948 التي أضاعت ثلثي فلسطين وكانت سبباً في تهجير إعداد كبيرة من الفلسطينيين .ما بعد النكبة تم إحياء الكيانية السياسية ولكن في ظل أوضاع أكثر صعوبة أهمها قيام دولة إسرائيل وواقع الشتات الفلسطيني.

Ibrahemibrach1@gmail.com